سِلْسَلَةُ: «حِكاياتٌ مِن جِبالِنا»

دَجاجاتُ أُمِّ يوسُف

د. ربيعة أبي فاضل

مكتبة سمير

ظهر منها حتّى الآن :

- الثعالب
- الثعلب والغراب
- دجاجات أمّ يوسف
- ديك أمّ مسعود



سِلْسِلَةُ: «حِكاياتٌ مِن جِبالِنا»

دَجاجاتُ أُمِّ يوسُف

د.ربيعة أبي فاضل

مكتبة سمير

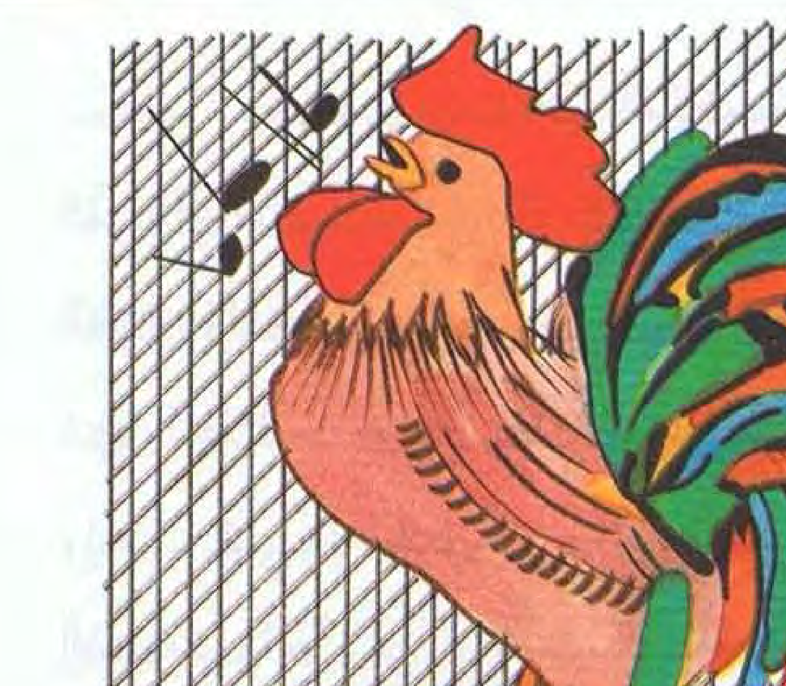
تُربّي جارتُنا أُمُّ يوسُفَ الدَّجاجَ لِأَنَّها لا تأْكُلُ، معَ عائِلتِها، سِوى البيضِ البَلَدِيِّ والفِراخِ الطَّبيعيَّةِ، فَدجاجاتُها تُحِبُّ الحُرِّيَّةَ وتَنمو فيها.



وَكُلَّما طالَ بقاؤُها في القُنِّ لِسَبَبٍ طارِئٍ، تَغْضَبُ وتَنْشُرُ مَناقيرَها على مدى شريطهِ مُثيرةً حَماسةَ الدِّيَكَةِ كي تَصيحَ.

وَصِياحُ دِيَكَةِ أُمِّ يوسفَ لا يَهْدَأُ، فثَمَّةَ دِيكٌ يَصيحُ في الثّانيةَ عَشْرَةَ ليلًا، لا يتأَخَّرُ عَنِ المَوْعدِ لَحْظَةً، وتَنْطَلِقُ الدِّيَكَةُ كلُّها قُبَيلَ الفَجْرِ لتُنادِيَ الحُرِّيَّةَ لها وَلِلدَّجاجاتِ. وَمِن أَسْرارِ القَريةِ الّتي يَعْرِفُها جيرانُ أُمِّ يوسفَ أنَّ دِيَكَتَها تَسبِقُ كلَّ الدِّيَكَةِ إلى الصِّياح، وأَنَّ دجاجاتِها تَبْدَأُ حِوارَها وَقوقاءَها وَمَعارِكَها قَبْلَ دَجاجِ القَرْيَةِ. وتَعنُفُ المعاركُ عَنْدَ الفَجْر حينَ تلْمَحُ ظِلَّ أُمِّ يوسفَ قادِمًا، وَفي يَدِها طَعامٌ أو ماءٌ أو أَمَلٌ جميلٌ.

وما أَجملَ نَغَماتِ الدِّيَكةِ في القَريةِ! كأَنَّها صَلَواتُ شكرٍ لِاستمرارِ الحَياةِ ولِفَجْرٍ جَديدٍ يُطِلُّ مِنْ وَجْهِ اللهِ ذي الجَلالِ. يَصيحُ ديكُ جارتِنا فَيَليهِ واحِدٌ في «الجورةِ» وآخَرُ في رأس الضَّيعَةِ، وآخرُ في «كَعْب الضَّيعة» وآخَرُ في «الضَّيعةِ»، وتمتَزِجُ في أَجْواءِ القَرْيَةِ صِياحاتُ الدِّيَكَةِ بزَقْزَقاتِ العَصافيرِ وبِأصواتِ الفَلّاحينَ مُعْلِنَةً قِيامَةَ النَّهار. وَقَدْ لاحَظْنا منذُ أَيّام قليلة أَنَّ ديكًا في الحيِّ صَمَتَ وانْقَطَعَتْ أَخبارُهُ. وسأَلْنا عَنْهُ، فقيلَ إنّه ماتَ حُزْنًا على دَجاجةٍ ذُبِحَتْ لأَنَّها لا تَبيضُ!



ومن اللَّحظات الحلْوَةِ في حياة الدَّجاجاتِ حينَ تُقرِّرُ أمُّ يوسُفَ فَتْحَ بابِ القُنِّ لِتَنطَلِقَ دجاجاتُها، عَبرَ الجَلالي، تختارُ ما يحلو لها مِنْ ثمارٍ وعُشْبٍ وحَشَراتٍ، تُحرِّكُ التُّرابَ والحَجَر، تَحْتَ الشّجرِ، تَشْرَبُ الماءَ

وتَرْفَعُ عَينيها إلى الجبالِ العاليةِ! وإنّ قِسمًا مِنَ الدَّجاجِ، يَبيضُ في زوايا الجَلالي، حَيْثُ يتذوَّقُ طَعْمَ الحُرِّيَّة. وكانَ على أُمِّ يوسفَ أن تَبْحثَ، وَهْيَ تَحْتَجُّ، عَنْ بَيْضٍ هُنا وهُناكَ. وكانَ



عَلَيْها أَيضًا أَنْ تَطْرُدَ عَصافيرَ الدُّوريِّ مِنْ أَمامِ المِصْطَبَةِ إذْ تُنافِسُ الدَّجاجاتِ على القَمْحِ والزُّؤانِ ، وَتأْتي بالعَشَراتِ تَأْكُلُ وتَلْعَبُ وتَرْحَلُ.

والمنظرُ الَّذي يَجْذُبُ الأَعمى حولَ بيتِ أُمِّ يوسفَ هو تِلْكَ الدَّجاجةُ الّتي كَسَرَتْ رِجْلَها ، فباتَتْ عاجِزَةً عَنِ الانْطِلاقِ ، لا تقفِزُ ولا تَتَذَوَّقُ ما تَشاءُ من كنوزِ التُّربةِ والنَّباتِ. تركَتْها الدَّجاجاتُ سِوى واحدةٍ يحرُسُها ديكٌ أَحمرُ. وتأْتي تِلكَ الدَّجاجةُ المُخْلِصةُ بِحُبوبٍ وَبِبَقايا طَعامٍ وتَرميها أَمامَ الدَّجاجةِ « المُعاقةِ » ، فَتأكلُ هذهِ بِرَغْبةٍ.

ولم يُقَصِّرِ الدّيكُ عَنِ المُساعَدَةِ ، فَهْوَ حالَ دونَ اَقْتِرابِ أَيَّةِ دَجاجةٍ. ولا تَستَطيعُ واحدةٌ عِصيانَ إرادتِه. يُحرِّكُ جَناحَيْهِ وَيُخرِجُ عَينَيْهِ مِنْ وَجْهِهِ وَيَشْمُخُ بِرَأْسِهِ شَمْخَةً تَكادُ تَفصِلُ رَأسَهُ عَنْ جِسْمه ، ثُمَّ يَتأَمَّلُ حَوْلَهُ فلا يرى أَثَرًا لِلدَّجاجاتِ. وَحْدَها صديقَتُهُ ، الّتي أَحَبَّها وأَحبَّتْهُ تُساعِدُ جارَتَها ، وَهْوَ يَحْميهِما ويَحنو عَليهِما.

وَلِحُرِّيَّةِ الدَّجاجاتِ حُدودٌ في نَظَرِ أُمِّ يُوسفَ، فلا يَحقُّ لَها أَنْ تعبثَ بِالمَزْروعاتِ القليلةِ تَحْتَ البيتِ. الدُّنيا غَلاءٌ، كما تقولُ جارَتُنا، وَهْيَ تَزْرَع لتَقْتَصِدَ. أَلَمْ يُعلِّمْها أبوها أَنّ أَوّلَ كُلِّ عَرْشٍ قِرشٌ! سُبحانَ الله! تُحبُّ أُمُّ يوسفَ الأَرضَ حُبًّا عَجيبًا! تَحْسَبُها، وأنتَ تراها حَولَ بيتِها، شَجَرةً خَضراءَ

تتحرَّكُ، تُقبِّلُ الأَغصانَ، تُنقِذُ النَّبتَ العَطْشانَ، تَقْطِفُ ما تَطالُ يَدُها مِنْ لوبياءَ وَبَندورة وفاصوليا وَعنبٍ وَتينٍ ولَيْمونٍ حامِضٍ.

وَمَعْروفٌ عنها أَنَّها لا تقصِدُ دُكّانَ القَرْيَةِ إلّا نادِرًا. وَيكادُ يَكونُ بيتُها الصَّغيرُ،

الغارقُ بينَ الشَّجرِ والعاشقُ للقَمر، دولةٌ مُستقِلَّةٌ حُرَّةٌ قويَّةٌ تَجْبَهُ زمانَ الحَرْبِ والسِّلمِ معًا.

وما يُعجِبُكَ فيها أَنَّ أَموالَ زوجِها وأَولادِها لَمْ تُغيِّرْ شَيئًا من عاداتِها القَرويَّةِ وَمِنْ طَبْعها العَفَويِّ.

فَهْيَ في مملَكتِها وَهُمْ في مملكتِهم. هُمْ واجَهوا الحَربَ بالتِّجارةِ والهِجْرَةِ، وَهْيَ واجَهَتْها بِالزَّرْعِ والضَّرْعِ وَتَربِيَةِ الدَّجاجِ. وَأَكثرُ ما تُشدِّدُ عَلَيْهِ الحَطَبُ للشِّتاءِ، فالحَطَبُ صِحِّيٌّ، كما تُردِّدُ، ولا تَرْغَبُ في مازوتٍ أَو كازٍ أَو أَيِّ

ضاغوطٍ آخرَ! إنّها تُهلِّلُ لِمَشْهَدِ الزُّنودِ تَحمِلُ البَلطاتِ وتَهْوي بِعُنفٍ على جُذوعِ الشَّجرِ، مِن خُرنوبٍ وَبَلُّوطٍ وسنديانٍ ويَرْزٍ وَغيرِه، وتَروحُ تَشْقَعُ ما تَيسَّرَ مِنْ قِطَعِها في القَبْوِ العَتيقِ حَيْثُ يَستريحُ صاجُ العافيَةِ وتَغفو قُربَهُ أَيّامُ البَراءةِ والنَّخوةِ!

كلُّ الجاراتِ يُحبِبْنَ أُمَّ يُوسُفَ لأَنَّها لا تَحْقِدُ وَلا تَنِمُّ، فَلِسانُها دافِئٌ وهِمَّتُها عَظيمةٌ. وَهْيَ ذاتُ صَوتٍ جميلٍ يَسلُبُ النّاسَ قُلوبَهُم وَخُصوصًا في سَهَراتِ الحُزْنِ. تَحْفَظُ الأَشعار. تَنْدُبُ كما الحَمامُ الباكي. لِأُمِّ يوسفَ فَضْلٌ على

الأَحياءِ لأنَّها تُحبُّهم وَفَضْلٌ على الأَمواتِ لأَنَّها تُودِّعهُم وَتَتمنَّى لِأَرواحِهِم الهُدوءَ. فَلَو قُدِّرَ لِأَمواتِ القَرْيَةِ أَنْ يَقوموا لَشَكَروها على حَرارة عاطِفَتِها في زَمَنٍ تَلاشَتْ فيهِ العَواطِفُ!

على أَنَّ جارَتَنا حاقِدَةٌ جِدًّا، هَذِهِ الأَيّامَ على الثَّعالِبِ. فَمع أَنَّها تَشيلُ اللُّقمةَ

مِنْ فَمِ السَّبعِ، وَهْيَ مَوصوفَةٌ بِشِدَّةِ الحذَرِ وبالآنتصارِ على القَدَرِ، ظَلَّ ثعلَبٌ ذَكِيٌّ يُراقِبُها ويُراقِبُها ويُراقِبُها حتّى خانَتْها الذّاكِرةُ يومًا، وتَرَكَتْ بابَ القُنِّ مُتَحَرِّرًا من قِفْلِهِ. وكادَ ذاكَ الثَّعْلَبُ يَقضي على كُلِّ الدَّجاجاتِ خَنْقًا لولا مَجيءُ آبنِها لَيْلًا وسَماعُهُ حَرَكَةً غَريبَةً تَحْتَ البَيْتِ.



ثَلاثُ دَجاجاتٍ مِنْ نَصيبِ الثَّعلبِ وما تَبَقّى مِنْها لَهُ عُمْرٌ جَديدٌ. وأَغلَقَ ابنُها بابَ القُنِّ ونامَ من دونِ أَنْ يُزعِجَ أُمَّهُ بخبرٍ غيرِ سارٍّ.

وفي فجرِ اليومِ التّالي، حَلَفَتْ أُمُّ يُوسُفَ بِكُلِّ القِدّيسينَ أَنّها لا تَأْكُلُ ولا تشرَبُ حتّى تنتقمَ مِنَ الثَّعلَبِ اللَّئيم بِفَصْلِ عَظْمِهِ عَنْ لَحْمِهِ! ولا عَجَبَ، فَهْيَ تَفْعَلُ ذَلِكَ لِأَنَّ أَباها فَسَخَ كَلْبًا يَومَ كانَ شابًّا. هَجمَ عليهِ الكلبُ يريدُ عضَّه وقَتْلَهُ، فَقَبضَ على فَكَّيهِ بِيَدَيهِ الحَديدِيَّتَينِ وَظَلَّ يَشُدُّ ويَشُدُّ حتّى تحوَّلَ الكلبُ قِطعتَينِ بَيْنَ يَدَيْهِ، رماهُما

ماسِحًا العَرَقَ عَنْ جَبْهَتِهِ، مُتابِعًا طَريقَهُ إلى الحَقْلِ. كانَ جيلُ أَبيها شُجاعًا لا يَهابُ الوَحْشَ، يُحطِّمُ الصَّخرَ وَيَطحَنُهُ بأَصابِعِهِ. وَفي عَيْنَي أُمِّ يوسُفَ الكَثيرُ مِنْ فُروسيّةِ أَبيها.

وَحَدَثَ أَنِ اتَّصَلَ بأُمِّ يوسُفَ ابنُها وابنتُها من أَميركا يَطلُبانِ مِنْها السَّفَرَ، فسُعادُ ابنتُها سَتَضَعُ طفلًا في الشَّهرِ المُقْبِلِ، ويوسفُ ابنُها الّذي سافرَ منذُ عشرِ سنينَ اشتاقَ إلى وَجْهِها وإلى رائحَةِ يَدَيها.

عاشَتْ أُمُّ يوسُفَ أُسبوعًا وَهْيَ في حَيرةٍ وترجُّحٍ. هَلْ تُسافِرُ وَراءَ البِحارِ،



وَهْيَ قَضَتْ حَياتَها كُلَّها في القَرْيَةِ لا
تَعْرِفُ سِوى طَريقِ العينِ ولا تَسْتَحْسِنُ
سِوى رُؤْيَةِ الوادي وصَنوبَرِهِ وَكُرومِهِ
وفاكِهَتِهِ ومِياهِهِ؟ هل تتركُ الدّجاجةَ
السوداءَ التي ربَطتْها وأَطْعَمتْها الحبَّةَ تِلْوَ
الأُخرى، بعد فَتْحِ مِنقارِها، لأَنَّ
قابِلِيَّتَها قليلةٌ وروحَها عليلةٌ؟

وقرَّرَتْ أَنْ تُسافِرَ
في الأَوَّلِ مِنْ أَيلولَ،
فأَحْضَرَتِ السَّعْتَرَ
والكِشْكَ والجُبْنَ البَلَدِيَّ
والتِّينَ المَطْبوخَ والزَّبيبَ
والعِنَبَ وحَبَّ الصَّنَوبَرِ.

وآشترتِ البَقلاوةَ والبزورات.
وقَطَفَتْ بعضَ الزَّيتونِ الّذي
ظَلَّ عابِسًا بِسَبَبِ قِلّةِ المَطرِ،
فالمطَرُ وَحْدَهُ يُنعِشُ الزَّيتونَ

ويُفْرِحُهُ. ولَمْ تنسَ اللّوزَ الأَخضرَ وَمُرَبَّياتِ الخَوخِ والجَوزِ والصُبّارِ وغيرَ ذَلكَ مِنْ ثمارِ لبنانَ الشَّهيّةِ.

وصباح سَفَرِها، بَكَتْ أُمُّ يوسف دَمْعَةَ حُزنٍ على هَجْرِ البَيْتِ والأَرْضِ لِلْمرَّةِ الأُولَى، ودَمعة فَرَحٍ وَشَوْقٍ في انتظارِ ضَمِّ وَلَدَيها المسافِرَيْنِ. ولو كانَ لِلْعَريشَةِ أَمامَ البابِ يدٌ لَضمَّتْها إلى صَدْرِها مُوَدِّعَةً، وَلَو كانَ لِلْخُرنوبَةِ فَمٌ لَقالَتْ لها: «معَ السَّلامةِ»! وَقَبْلَ أَنْ تَنْقُلَها السَّيّارةُ إلى السّاحلِ لِتَطيرَ مِنْ بَيْروتَ أَوْصَتِ ابنَتَها: «إِنْتَبِهي إلى القِرْقَةِ وَإلى الدَّجاجاتِ. أَطْعِميها جَيِّدًا ولا تُهْمِلي البَيْتَ!»

والاِهْتِمامُ بالقِرْقَةِ فَنٌّ مِنْ فُنونِ أُمِّ يُوسفَ، فَهْيَ تُتْقِنُ تَرْبِيَةَ الدَّجاجِ وَتُحِبُّ خُصوصًا الصِّيصانَ، فتُدفِئُها وَتُغذِّيها ولا تَطْرُدُها حينَ تَدْخلُ غُرفَتَها، بَلْ تُداعِبُها كَما داعَبَتْ أَطْفالَها. وَصَدَفَ أَنْ قَرقَتِ الدَّجاجةُ الرَّصاصيَّةُ قَبْلَ يَومَيْنِ مِنْ رَحيلِ أُمِّ يُوسُفَ إلى أَميركا، فَشاءَتْ أُمُّ يُوسُفَ أَنْ تَسْتَغِلَّ الفُرصَةَ وَتَزيدَ عَدَدَ الدَّجاجاتِ. وَمَعْنى قَرقَت صَوَّتَتْ، أَي أَعْلَنَتْ بِتَكْرارِها صَوتَ «قِرق... قِرق... قِرق...» أَنَّها تستحقّ أن تكونَ أُمًّا لفراخٍ كثيرةٍ.



كانَ لِلدَّجاجةِ الرَّصاصيَّةِ جَناحان كَبيرانِ ، فجَمعت لها وديعة، ابنةُ أُمِّ يوسُفَ، البَيضَ اللّازِمَ بَعْدَما راقَبَتْهُ على ضَوءِ الشَّمسِ ، لِتَجِدَ فيهِ عَلامةَ الخصْبِ السَّوداءَ. ورَبَخَتِ القِرقَةُ عِشْرينَ يومًا فَوقَ بَيضِها، ووديعة تُقيمُ القِرقَةَ كُلَّ يومٍ بِحذَرٍ، تُطْعِمُها وتَسْقيها وتَسُدُّ كُلَّ حاجاتِها ثُمَّ تُعيدُها إلى بَيْضِها الدّافِئِ .



وَمِنْ عادَةِ القِرْقَةِ في مَرْحلَةِ تَفْريخِ البَيْض أَنْ تَحْضُنَ كُلَّ بَيْضِها، فَتُقدِّمُ بَعْضَهُ بِمِنْقارِها وَتُؤَخِّرُ بَعضَهُ الآخرَ وَفْقًا لِلْحاجَةِ. وفي اليَومِ التّاسعَ عَشَرَ نَزَلَتْ وَديعة كَعادَتِها، فَوَجَدَتْ أَنَّ البَيْضاتِ أَفْرَخَتْ سِوى عددٍ قَليلٍ مِنْها، ففَرِحَتْ وَارْتَبَكَتْ وسأَلَتِ الجيرانَ عمّا يجبُ أَنْ تَفْعلَ. وساعَدتها أُمُّ مسعودٍ، فأَحْضَرتْ بُرغلًا ناعمًا وماءً وأَطْعَمَتِ الفِراخَ قائِلَةً: «الله يُبارِكُ»!

غَريبٌ أَمْرُ الدَّجاجةِ المُقْرِقَةِ كَيْفَ تَكونُ هادِئَةً غَيْرَ مُبالِيَةٍ فَتَتَحوَّلُ دَجاجةً شَرِسَةً تُدافِعُ عَنْ فِراخِها بِحَزْمٍ وَعَزْمٍ! كانَتْ أُمُّ يوسُفَ تُسمِّيها «شَرشُوحةَ القُنِّ»، وإذْ بِرُوحِ الأُمومَةِ تَهُبُّ فيها فَتُحَوِّلُها كُتْلَةً من حُبٍّ وَعُنفٍ. أَربَعونَ يومًا انْقَضَتْ ووديعةُ تُلاحِقُ كلَّ صوصٍ بِمُفْرَدِهِ خَوفًا مِنَ التَّقْصيرِ وَحِفاظًا عَلى أَمانةِ أُمِّها. صارَتْ كلُّ الصيصانِ تَعْرِفُها وتُحِبُّها وَتَسعى إليها، بَعْدَما تَرَكَتْها الدَّجاجَةُ الأُمُّ وَعادَتْ إلى رَفيقاتِها الدَّجاجاتِ، مُطْمئِنَّةً إلى أنَّ وديعة ستَحلُّ محلَّها. أمّا وديعةُ، فراحَتْ تُراقِبُها كما قالَتْ لَها أُمُّ

مسعودٍ، فَلَعلَّها تَرْغَبُ من جَديدٍ في «التَّقْريق» وتَفْقيسِ البَيْضِ وصُنْعِ الحياةِ.

كانَتْ تَجرِبَةً مشوِّقَةً في حياةِ وديعة. اِقْتَرَبَتْ مِنَ الحيَوانِ والنَّباتِ وَبِخاصَّةٍ مِنَ الطُّيورِ. فَهِمَتْ بَعضَ أَسْرارِها وأَثْنَتْ على مَظاهِرِ الحنان عِنْدَ الأُمِّ التي تُعَلِّمُ صِيصانَها كَيْفَ تَأْكُلُ وكَيْفَ تَطيرُ وَكَيْفَ تُواجِهُ المَصيرَ. والَّذي تَكْرَهُهُ وديعة عِنْدَ بعضِ الحيوانِ كالعَقْعَقِ أو القَعْقِ، كما يُسمُّونَهُ، تَرْكُ الفِراخِ بلا طَعامٍ والانْطِباعُ بالخِيانَةِ والخُبْثِ. وَقَدْ حَفِظَتْ في مدرَسَتِها شِعْرًا عَنِ العَقْعَقِ لا تَنْساهُ:



إذا بـارَكَ اللهُ فـي طـائـرٍ

فلا بـارَكَ اللهُ فـي العَقْعَـقِ

طَويلُ الذَّنابى قَصيرُ الجَنـاحِ

متى ما يجـدْ غفلـةً يسـرقِ

يُقلِّـبُ عَينيـهِ فـي رأسِـهِ

كـأَنَّهمـا قَطـرتـا زِئْبَـقِ

وحياةُ الدَّجاجِ، كما رأَتْ، لا تخلو مِنْ صِراعٍ، فالأَقْوى يَنتَصرُ دائِمًا. وَقَـدْ

تَتعاوَنُ مَجْموعةٌ مِنَ الدَّجاجِ على نَقْرِ رَأْسِ رَفيقـةٍ لَهـا، فَتَحْفِـرُهُ كمـا يُحفَـرُ الخَشَـبُ بلا رَحْمَـةٍ، ولا تُقْلِـعُ عَنْـهُ أَيّامًا، حتّى تَقْتُلَها بَعْدَ أَنْ تملأ رأسَها نُقَرًا مُستَديرةً راعِبَةً.



ووديعة لا تُطيقُ دِيكًا نقّارًا يَتَزَعَّـمُ دَجاجاتِها. فَبعْدَما اكْتَشَفَتْ كِبرياءَهُ وَحِقْدَهُ قَرَّرتْ أَنْ تَذْبَحَهُ، لَكِنَّهـا

انْتَظَرتْ اتِّصالًا مِن أُمِّها لِتَشْرَحَ لَها شُؤونَ الدَّجاجاتِ وَشُجونَها ، وَلِتُوضِحَ لها نِيَّتها حِيالَ الدِّيكِ القاسي القَلْبِ .

لَقَدْ وَصَلَتْ أَخْبارُ القِرْقَةِ الرَّصاصِيَّةِ إلى لوس أنجلوس ، فَيا لَها مِنْ أَخبارٍ عَنْ ريفِنا تُفْرِحُ قُلوبَ المُهاجِرين ! فقد نَقَلَتْ آلةُ التَّصويرِ صُوَرًا لِلْقِرقَةِ وَصيصانِها ، كما نقَلَتْ صُوَرًا لوديعة تَحُلُّ مَحَلَّ أُمِّها في خِدمَةِ أبيها ومَن لَمْ يتزوَّجْ مِنْ إخوتِها . وكانت أُمُّها قد أَجَّلتْ سَفَرَها لِتُزَوِّجَ ابنَها عمادًا الَّذي أَلَحَّ على بَقائِها ، فَزَوَّجتْهُ ورَقَصَتْ في عُرسِهِ وَهَلَّلَت ، وسافَرَتْ مُرتاحَةَ البالِ .

وما إنْ غابَتْ أُمُّ يوسُفَ ، مِن غيرِ شَرٍّ ، عَنِ القَريَةِ حتّى زادَتْ بَناتُ آوى وَعْوَعاتِها ومُحاولاتِها لِصَيْدِ ما تبقَّى مِنْ دَجاجٍ . فَبَينَ الثّعالبِ ثعلبٌ صَيُودٌ عنيدٌ تُوَلْوِلُ القَرْيَةُ مِنْ حِيَلِهِ وَوَثَباتِهِ! وما زرَعَ إلا الغَصَّةَ في قُلوبِ القَرَوِيّينَ ، فكُلُّ الَّذينَ أطلقوا عَلَيْه النّارَ خابَتْ أَحلامُهُم وَعَجزوا عَنِ اللّحاقِ بِهِ ، فَقَرَّروا مطارَدَتَهُ ، مَعَ هُبوطِ اللَّيلِ في مَغارَةٍ تَبعُدُ قليلًا عن البُيوتِ . وَقَدْ قدَّمَ بعضُ الَّذينَ أَخفَقوا في قَتْلِهِ جائزةً ماليَّةً لِمَنْ يَقْضي عَلَيْهِ وَيُريحُ القَرْيَةَ ، فلجأ أَحدُهم إلى



حِمارٍ أَشْبَعَهُ سُمًّا ورماهُ في حَقْلٍ قَريـبٍ.
وَبَعْدَ يومَيْنِ كانَتْ جُثَثُ الثَّعالِبِ حَولَـه
مِثْلَ التُّرابِ فَٱسْتَراحَ بالُ أَهْلِ القَريَـةِ
وَمِنْهُم وديعة الّتي لم يَخسَرِ القُنُّ ريشَةً
واحدةً خِلالَ ٱهتمامِها بِدَجاجاتِ البَيْتِ.

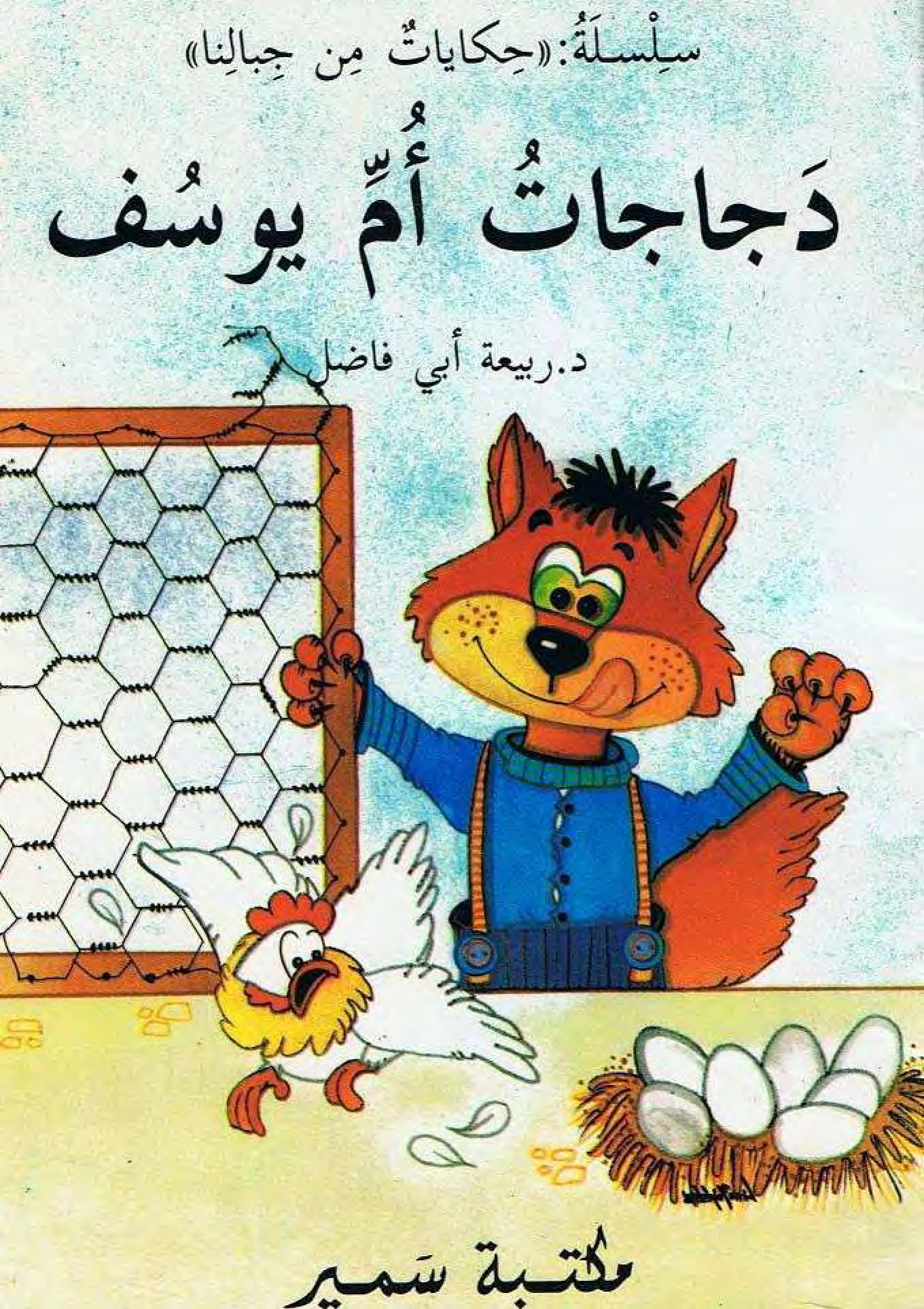




وما جَعَلَ وديعة فتاةً كريمةً ومُحتَرَمَـةً
أَنَّها جامعيّةٌ مُثقَّفةٌ ولا تُظهِرُ أيَّ كَراهِيَـةٍ
نحوَ القَريَةِ وعاداتها وَنَمَـطِ الحَيـاةِ فيهـا
وأذواقِ ناسِها وأساليب تَعامُلهِم وَعَيْشهِـم.
وَهْيَ لا تَرْمي كَلِماتٍ فَرَنْسيةً في وُجـوهِ

جيرانِها القَرَوِيّينَ الّذينَ لا يَفهمونَ غيرَ لَهْجَتِهِم، وَيُزْعِجُها أَنْ تَجدَ رَفيقاتِها الجامعيّاتِ، القَليلاتِ في القَريةِ، يَخرُجْنَ على تُراثِ القَريَةِ ويتَفَرْنَجْنَ زِيًّا وَلُغَةً وَسُلوكًا، وَتَصِلُ بِهِنَّ الصَّنْعَةُ إلى حَدِّ تَجاهُلِ الأَهْلِ والتَّنكُّرِ لِلطُّفولَةِ العَفَوِيَّةِ فَوْقَ تُرابِ القَرْيَةِ.

غدًا، عِنْدما تَعودُ أُمُّ يوسفَ من أَميركا، إن شاءَ اللهُ، تَجِدُ بيتَها يَضْحَكُ وأَرضَها تَنْتَعِشُ ودجاجاتِها تتنقَّلُ بِحُرِّيَّةٍ بَيْنَ الجَلالي. فيا أمَّ يُوسُفَ لا تُطيلي الغِيابَ لأَنَّ السَّفَر قِطْعَةٌ من عَذابٍ!


سِلْسِلَةُ: «حِكاياتٌ مِن جِبالِنا»
دَجاجاتُ أُمِّ يوسُف
د. ربيعة أبي فاضل
مكتبة سَمير